

غزو اللغة ! تفكيك المصطلح الدخيل

مهند عبد الحميد*

اللغة، هي إعراب عن معنى وإبراز مُضْمَر، وأداة تخاطب من أجل التفاهم، واللغة الحقّ تقتضي البيان والإفصاح، فإذا ارتفع الفكر اللغوي وحلّق في سماء البيان، فذلكم هو البيان والفصاحة والبلاغة والتنوير، وعكس ذلك هو التعتيم والإبهام والغموض، ومن يلجأ إلى الإبهام فهو مضلّ ومخادع. ولكل قوم أن يستخدموا مصطلحات خاصة بهم، وذات دلالة واضحة وإن اختلفت على الألسنة والأقلام . ويرتبط المصطلح ارتباطاً شديداً، بحراك المفاهيم والأفكار، المتواجدة على مساحة كبيرة من المعاني والدلالات والطاقات، والمحركة لتأويل المصطلح المنتج في الثقافات الأخرى إلى مصطلح ينسجم مع الثقافة العربية، حيث تبرز، هنا، مهمة تفكيك المصطلح الواقد من ثقافات أخرى، المترافقة مع مهمة إعادة بناء المصطلح بناءً إبداعياً، يتوافق مع الشرط الثقافي والسياسي، ومع النقد الأدبي واللسانيات والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا وتحمل «المصطلحات» مركز اهتمام المتصارعين سياسياً وثقافياً، فيحاول كل طرف فرض مصطلحاته ليلوّن «الحقائق» على طريقته.

إن ترويض الثقافة يبدأ من التحكم في المصطلح، فإذا كان المصطلح هو دلالة التعبير عن فكرة، فقد توصلت فنون الحرب النفسية إلى أن المصطلح قد يكون أداة تعبير في فكرة، وخاصة عندما يتكرر المصطلح وتعوّد عليه الأسماع والأفهام، وصار بمقدور المصطلح أن يغير الفكرة .

ويساعد المصطلح في تغذية الخداع والتبسيطات، ويجعل الكلمات مادة تحتل المناورة، والأهم . فإن المصطلح في ثقافة العولمة يحاول صياغة وعي تثبيت هزيمة الضعفاء وانتصار الأقوياء، وعي الدفاع عن «ضرورة» الإذعان باعتباره شرط عالمية الوجود وبرهاناً على الانخراط في النظام العالمي الجديد.

ثمة حشد كبير، من مصطلحات العلوم والفنون والسياسة والفلسفة والأدب والثقافة، التي لها دلالات

استعمالية وتأويلية، بعض المصطلحات، وخاصة في مجال العلم والمعرفة والثقافة والفنون واللغة، جرى التعاطي معها بالدراسة والبحث والتمحيص ودوّنت في معاجم متخصصة. وهناك رصيد مصطلحي معاصر متوفر في المجمع اللغوية العربية، كمجمع اللغة العربية في القاهرة، ومكتب تنسيق التعريب في الرباط، والمركز اللغوي في الرياض، غير أن رصيد المصطلح السياسي والإعلامي العربي ما زال ضعيفاً وشبه غائب، الأمر الذي يجعلنا عرضة لتأثير المصطلحات المعادية والمسمومة التي تتسلل إلى خطابنا السياسي والإعلامي، وتوقعنا في حبالها ومخاطرها.

المصطلح في اللغة والنقد

تزرخ معاجم اللغة وكتب النحو والمنطق والألسنيات، بمعطيات عن جذور اللفظ ومعانيه وأحكامه والتغييرات التي تطرأ عليه وحدود استخدامه. وقد تعددت الاتجاهات في وصف تكوينه الحسي عبر مخارج الحنجرة والفم واللسان. البعض يرى أن المصطلح يتركّب من «الدال» و«المدلول»، حيث يلزم المصطلح المعنى تلازماً لا ينفصم، والمدلول أو المعنى هو صورة ذهنية تنتمي إلى العلاقة اللغوية وليس إلى الشيء الواقعي الموجود خارج اللغة.

بيد أن اللفظ يحتمل أكثر من معنى، الأمر الذي يستدعي البحث عن الجذور اللغوية والمعاني الفلسفية واللجوء إلى بعض العلوم لاعتماد المعنى الملائم للمصطلح الأجنبي. ولا شك، أننا نعيش أزمة مصطلحية، توزع بين فضاءات يتداخل فيها المنهجي والتاريخي والنقدي ونقد النقد ونقد الأفكار. ويظهر أن عبور المصطلح النقدي لقنوات تحويل لا متناهية، يفسّر كعلاقة مرونة مرغوبة في الأدوات الإجرائية التي يتطلبها الحقل المعرفي، نظراً لطبيعة الاستبدالات المفترضة في كل تطوير واختلاف للأجيال والعقليات والثقافات.

والأزمة المصطلحية تبدأ بإشكالية الاختلاف والخصوصية، في علاقة الكلمات بالأشياء وعلاقة الأسماء بمسمياتها في حقول ثقافية غير متكافئة، تقود إلى ازدواجية ثقافية ذات مرجعيات مختلفة «فرانكوفونية» و«أنجلوفونية». إن هذه الازدواجية تطرح كيف يمكن الأخذ باللفظ أو الأخذ بالمعنى في المصطلح النقدي المقتبس عن المرجعيات الغربية؟ وتحديداً، كيف يفهم المصطلح ضمن ثنائيات الشرق/ الغرب، الترجمة/ المتأقفة، الهوية الوطنية/ العولة.

إن وضع إطار للقراءة والكتابة النقدية المعاصرة، لا يتم بتغليب المنظور التبسيطي والاختزالي للمصطلح النقدي، بل بإبعاده عن التلقينية القاتلة وعبر تهيئة مناخ البحث الملائم الكفيل بتوسيع قاعدة معطيات النقاد والقراء على السواء، وحتى يخرج الجميع من القصور المعرفي إلى منطلق التداول المنهجي.

وإذا ما أخذنا المصطلح الفرنسي «Ecart»، فكيف يمكن إفراغ هذا المصطلح من حملته الغربية، وشحنه بواقع عربي؟ إن ما يعادل معنى هذا المصطلح الفرنسي في المغرب هو كلمة «انزياح»، التي يتم تداولها في

أغلب المقاربات الجامعية، بينما تستعمل كلمة «المجازة» في مصر وكلمة «العدول» في تونس، وكلمة «الفارق» في لبنان وسوريا، لذات المصطلح الفرنسي «Ecart». إنه اختلاف في تسميات تلتقي جميعها عند دلالة المسمى الواحد في معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة. إن تضارب استعمالات المصطلحات بين ولادتها الأصلية في مصادرها الأولى وتناقلها عبر وسطاء ثقافيين يخضعون لتقاليد أدبية ومواصفات ثقافية تسمح للمصطلح بانزياحات، تطبع الاستعمال والكتابة والقراءة.

ويبدو أن ما يواجه الباحث في مقارنة المصطلح هو التطبيقات النقدية التي تتوخى وضع إطار للقراءة والكتابة، تتدخل فيه الفئات الفردية في تكوين المصطلحات النقدية بفعل رصيدها الثقافي المحصل من الممارسة في الحقل المعرفي، الذي تعتبر فيه المقاربة الاصطلاحية أدبية فاعلة وإجرائية قبل نسبتها إلى الغرب والشرق.

البعض يقول: إنه لا يجوز الحكم للمصطلح أو عليه، بما في ذلك التعاطي مع الثروة المصطلحية التي روجتها نظريات رائده مثل البنيوية والتوزيعية والوظيفية والتوليدية التحويلية، ما لم يتم اعتماد مدونة مصطلحية عربية متفق عليها، تشمل كل الرصيد المصطلحي المعاصر مما توفر منه في الجامع اللغوية وبنوك المعلومات وتكون وافية بشروط ومقاييس لغوية زمانية ومكانية كمية وكيفية وحتى اجتماعية وثقافية.

وترتبط المدونة بوثيقة مصدر كاملة، لها من الشواهد المطردة والشائعة والمبررة التي تساعدنا على استخلاص إيجابيات مصطلحنا المعاصر وسلبياته واستقراء قوانين وقواعد عامة، وذلك من أجل وضع مبادئ مصطلحية عربية علمية موحدة ومتطورة، تيسر علينا نقل النظريات نقلاً يعتد به .

والخطوة اللاحقة لتجميع الرصيد المصطلحي هي، إخضاع عينات متناسقة منتظمة ذات حجية لغوية وعلمية لدراسات ميدانية مركزة من أجل وضع معجم اصطلاحى عربي معاصر في ميادين وعلوم مختلفة، يكون قادراً على التعاطي مع الخطاب الاصطلاحى الوافد بشكل نقدي بناءً .

وهناك محاولة للكشف عن جانب حيوي من جوانب الحضارة العربية - الإسلامية، والتوصل إلى معرفة سمات التفكير العلمي وذلك بالوقوف على أصول الالفاظ، لمعرفة دلالاتها المعجمية والإستعمالية والتأويلية، باستقراء النصوص اللغوية والأدبية والتاريخية من عصر ما قبل الإسلام وحتى نهاية القرن السادس الهجري، وبيان مدلولات ألفاظ العلم والمعرفة عند الكتاب والمصنّفين.

إن المادة اللغوية في المعجم يتضمن لفظها دلالة أصلية أو حقيقية إلى جانب معانيها المجازية المتعددة الأمر الذي يجعل تحديد الدلالة الحقيقية صعباً في كثير من الأحيان، لأنّ اللفظ قد يستعمل استعمالاً أصلياً أو خالصاً وقد يحدث العكس. وهذا يتطلب متابعة اللفظ في الاستعمال والتحقق منه بالوقوف عليه في التركيب والسياق، بمعنى متابعة اللفظة في الاستعمال لتحديد معناها .

يبقى القول: إنّ ثمة مشكلات لتعريب المصطلح اللغوي المعاصر، أهمها، تعدّد المصطلحات واللبس وعدم الدقة، ونقص في بعض المصطلحات، وعدم الشيعوع، واستخدام المصطلحات والصيغ الأجنبية دون

تمحيص. وتعود هذه المشكلات لحدثة هذا العلم في العربية، وتنوع البيئات التي يصدر عنها المصطلح، وفردية الجهود، وسوء فهم المعربين لمفهوم المصطلح، والتعصّب لمصطلحات بعينها وضعف الصلة بين جامعات المشرق والمغرب.

وقد نتج عن هذه الأسباب اضطراب الباحثين في تحديد المدلول الحقيقي للمصطلح. ووصول المعربين إلى أحكام مغايرة للواقع، وانشغال عدد من المتخصّصين بالبحث عن مصطلح دقيق يؤدّي المعنى بالطريقة المثلى، بدلاً من الانطلاق للإبداع في مجال اللغة .

مصطلحات دخيلة شائعة

ما زال حشد كبير من المصطلحات الفارسية والتركية واليونانية، إضافة لحشد كبير من المصطلحات الغربية عالماً في تراثنا اللغوي. تلك المصطلحات التي تغلغت مع الدول الأجنبية التي فرضت سيطرتها على الشعوب العربية خلال ربح طويل من الزمن، وعبرّت عن عمليات التأثر والتأثير، وعن الثقافة السائدة وطبيعة النظم المسيطرة، والفئات والشرائح الاجتماعية المحلية التي سرعان ما كانت تستجيب للثقافة الوافدة. في هذا السياق، دخلت ألفاظ غير فصيحة على اللغة العربية في مجالات إدارية وعسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية.

وقد استقرت العديد من الألفاظ والمصطلحات، وتم التراجع عن البعض الآخر، ويختلف مستوى التعاطي من بلد لآخر، ومن مرحلة لأخرى بما يتفق مع التحولات السياسية والاقتصادية والتطور الثقافي وطبيعة الأيديولوجيا التي كانت سائدة. فالثقافة الليبرالية فتحت الأبواب أمام المصطلحات الغربية، والثقافة القومية أولت اهتماماً خاصاً بالتعريب والتراجع عن الألفاظ والمصطلحات الدخيلة على اللغة العربية، والثقافة الدينية ركّزت اهتمامها على المصطلحات التراثية، وقد أدّت نتيجة التحولات والحراك الثقافي إلى تثبيت بعض المصطلحات والتراجع عن البعض الآخر .

نماذج من المصطلحات الوافدة من عهود قديمة

أولاً: مصطلحات النخب السياسية والإدارية والعسكرية

باشا: لقب استخدم للولاة والوزراء في العهد العثماني- التركي وهو من أصل فارسي.
خديوي: لقب منحه السلطان عبد العزيز لإسماعيل باشا والي مصر العام 1867 وحمله خلفاؤه من بعده، وقد ساد هذا المصطلح في العهد التركي وعهد الاحتلال البريطاني في مصر.
بيك: لفظ تشريف أطلق في العهد التركي واستمر تداوله في عهود ما قبل الاستقلال الوطني.
خواجة: لفظ أطلق على الوزير، السيد، والعالم، من أصل فارسي .

أميرال: لفظ يعني أمير البحر في اللغة العربية، وأطلق على قائد الاسطول البحري عند الأتراك .
أفندي: لقب أطلقه الأتراك على الموظفين ورجال الدين وصغار ضباط الجيش، وهو من أصل يوناني،
ولاتيني .

بيكباشي: رتبة عسكرية يرأس صاحبها ألف جندي، تفيد الرئاسة والقيادة في العهد التركي .
أغا: السيد، لفظ تركي الأصل .

يوزباشي: رتبة عسكرية كانت تعطى في العهد التركي .
باش مهندس: يعني رئيس المهندسين، استخدم في العهد التركي .

ثانياً: مصطلحات أدوات السيطرة والقمع

جندرمة: مصطلح إيطالي الأصل Gendarma، استخدم بالفرنسية ويعني الشرطة. كما استخدم في
العهد التركي.

خازوق: لفظ تركي الأصل، وهو أداة للإعدام بطول 70 سنتيمتراً، وتد مدبب معدّ لإجلال المحكوم عليه
بالإعدام، جاء في شريعة حمورابي تحت باب (التوتيد) للمرأة الزانية.

زنزانة: غرفة ضيقة لسجن الأفراد فارسية الأصل .

قاووش: غرفة كبيرة معدة لإقامة السجناء، مصطلح تركي الأصل.

سراي: لفظ فارسي الأصل، أطلق على القصور السلطانية في العهد العثماني.

طابور: لفظ تركي ويعني صف .

كركون: لفظ تركي ويعني السجن أو مركز الشرطة.

طبانجة: لفظ فارسي ويعني المسدس .

فرقاطة: لفظ إيطالي Fergata، وهي نوع من السفن البحرية كانت تستخدم في العهد العثماني.

فلقة: لفظ تركي، أسلوب للتعذيب .

فرمان: لفظ فارسي الأصل ويعني لغة الأمر .

ثالثاً: مصطلحات الملكية والتقسيمات الإدارية .

طابو: مصطلح تركي وتعني السند الذي يحدّد ملكية الأرض .

دونم: وحدة قياس للمساحة، تركية الأصل .

فدان: مصطلح سرياني الأصل يطلق على وحدة قياس للمساحة .

فرسخ: لفظ فارسي . وتعني وحدة قياس للمسافة تعادل ثلاثة أميال .

قواشين: لفظ تركي للدلالة على الأراضي الأميرية التي تعتبر من الأملاك السلطانية .

سنجق: لفظ تركي، يطلق على أصغر التقسيمات الإدارية.

عرضالحاجي: مصطلح مركب من العربية والتركية وهو كاتب العرائض والطلبات في العهد التركي .

رابعاً: مصطلحات أخرى.

سندس: كلمة فارسية الأصل، معرّبة منذ القديم وتعني نسيجاً حريراً رقيقاً، وقد وردت في القرآن الكريم: (من سندس وإستبرق) .

شادرؤان: كلمة فارسية الأصل وتعني الروح السعيدة، تطلق في إيران عند ذكر محاسن المتوفى . وأطلقت في العهد العباسي على الستائر التي تحجب الخليفة عن حاشيته وفي العهد المملوكي أطلقت هذه الكلمة على آلة فصل مياه الأنهار عند التحويل .

فندق: لفظ إيطالي الأصل وهو البناء الواسع من عدة طبقات، ينزل فيه التجار الأوروبيون في مدن الشرق .

كوميسيونجي: لفظ مركب لاتيني - تركي أخذ عن الإيطالية يعني الوسيط التجاري .
صرماية: كلمة فارسية من سرموزة، بمعنى حذاء .

سفر برّك: كلمة عربية - تركية مركبة وتعني السفر براً لهدف الخدمة العسكرية .
زنديق: كلمة فارسية الأصل وتعني المنافق، أطلقت في العهد العباسي للدلالة على بعض التيارات الشعبية التي شككت في الديانة الإسلامية .

ريال: كلمة إسبانية الأصل Reale وهي وحدة نقد .

تخت: كلمة فارسية الأصل وتعني السرير أو كرسي الملك .

بخشيش: كلمة فارسية الأصل وتعني عطاء، إكرامية .

بصطار: حذاء ذو ساق طويلة (فارسي).

بهلوان: كلمة فارسية تعني بطل شجاع .

نماذج من المصطلحات الوافدة من عهود حديثة:

أولاً: المصطلحات الفنية الإغريقية واللاتينية المنشأ

يسود أوساط الفنانين والمبدعين الكثير من المصطلحات الوافدة، منها:

كوميديا: هزل، تراجيديا: مأساة، دراما: فاجعة، أوبريت: غنائية، ميلودراما: مأساة فاجعة، الأستديو: الفن، غرفة التصوير، أوركسترا: فرقة موسيقية، السامفوني: ملحمة موسيقية، المونولوج: المناجاة، المايسترو: ضابط الإيقاع، الكورس: الجوقة، الكمبرس: البطانة، الماكياج: التّحفيّ، البروفة: التدريب، السيناريو: النص السينمائي، الأراجوز: الدمى، العرائس، الكاريكاتور: الرسم الساخر، اسكتش: تمثيلية قصيرة .

ثانياً: مصطلحات تجارية

المصطلح الأجنبي	المعنى العربي	المصطلح الأجنبي	المعنى العربي
الماركة	العلامة	كومسيون	عمولة
بوليصة	وثيقة	الشيك	الحوالة
الفاكتورة	قائمة الحساب	الكوبون	القسيمة
إكسترا	فاخر	الموديل	الطراز
السيراميك	الخزفيات	الكريستال	البلور
نوفوتييه	أزياء حديثة	الجاكيت	السترة
البنطلون	السريال	الشورت	السريال القصير
بيجامة	منامة	بالطو	معطف
الشبشب	الخف	السوتيان	حمالة الصدر (صدرية)
ترانزيت	عبور	ربابكيا	مستعمل، غير جديد

ثالثاً: مصطلحات سياسية ودبلوماسية

المصطلح الأجنبي	المعنى العربي	المصطلح الأجنبي	المعنى العربي
البروتوكول	العرف السياسي	الفيتو	النقض
فيدرالي	اتحادي (بين دول قائمة)	ميليشيا	الكتائب الخاصة
اليوبيل	العيد	الكومنولث	مستعمرات بريطانية (سابقاً)
انسيكلوبيديا	دائرة المعارف	بروليتاريا	الطبقة العاملة
برجوازية	الطبقة الرأسمالية	برلمان	مجلس النواب

رابعاً: مصطلحات غذائية

المصطلح الأجنبي	المعنى العربي	المصطلح الأجنبي	المعنى العربي
الساندويتش	الشطيرة	طورطة	فطيرة
البسكويت	الخبائز	كوكتيل	خلطة
التوست	كسرة محمرة من الخبز	الجاتو	الكعكة

خامساً: مصطلحات أخرى

المصطلح الأجنبي	المعنى العربي	المصطلح الأجنبي	المعنى العربي
تاكسي	سيارة أجرة	أوتوبيس، باص	حافلة
اللوري	الشاحنة	البنسيون	النزل
الفيلا	الدارة	الكامب	المخيم
البوفيه	المقصف	الجرسون	النادل
السكرتير	أمين السر	بالون	منطاد
السيستر	رئيسة الممرضين	تلفزيون	مرناة
الرادار	الراصد	الميكرفون	المجهر
الراديو	المذيع	المانشيت	العنوان الرئيس
ريبورتاج	التحقيق الصحفي	الروشيّة	تذكرة الدواء
الاستاد	الملاعب الرياضي	التلفون	الهاتف
الونش	الرافعة		

إن استخدام المصطلحات العصرية والحداثيّة الأجنبيّة، له علاقة بالمنشأ المادي والإبداعي لموضوعاتها، وهو منشأ غير عربي، ما شجع انتقال الألفاظ والمصطلحات بالترافق مع انتقال الموضوعات ذاتها إلى السوق العربيّة والإنسان العربي. ويلاحظ أن بعض المصطلحات وخاصة في الأوساط الفنيّة والإعلاميّة والتقنيّة أصبحت مثبتة وشائعة ومستقرة. وعلى الرغم من وجود أساس موضوعي لهذه الظاهرة إلا أنه لا يروق لفقهاء اللغة العربيّة، يقول محمود تيمور في معرض تعليقه على ظاهرة تغلغل الألفاظ والمصطلحات الأجنبيّة: «إن اللفظ الأجنبي في نطقه حيناً غرابه، وفي تركيبه حيناً شذوّد، وهو في كل حين غامضٌ طامسٌ، لا يشعر منه الناطق العربي بمدلول ولا يأنس فيه من بصيص . وأما اللفظ الفصيح فإنه باشتقاقه من اللسان العربي، يؤنس القارئ والكاتب كليهما ويشعرهما بما لهما من ذاتية في اللغة، ويجري في مساق الجملة العربيّة على تجانس وتوافق والتئام». بقي القول: إن الوعي اللغوي العربي والنزوع إلى الإفصاح يتراجعان أمام «المصطلحات» الأجنبيّة الحديثة المحملة بتقنيات تناطح السماء وتخرق كل حدود، ويتراجعان أمام العامية المحليّة التي تآكل من رصيد الفصحى بشهية مترايدة.

المصطلح السياسي الحديث

يشكّل المصطلح السياسي أداة أساسية في الصراع العربي الفلسطيني - الصهيوني الإسرائيلي على

مدار القرن الماضي. وقد كشفت المصطلحات المتداولة والشائعة الأهداف السياسية الاستراتيجية للأطراف المعادية. فجاءت المصطلحات الإسرائيلية، لتعبر عن إنكار الهوية الوطنية الفلسطينية، وإنكار وجود الشعب الفلسطيني. تلك المصطلحات المتضمنة في الخطاب السياسي الإسرائيلي والمشاريع السياسية، التي استهدفت إلحاق الشعب الفلسطيني كمجموعات بشرية وتذويبه في المحيط العربي، أو إخضاعه وفرض الاستسلام عليه، وذلك أخذاً بمقولة أن الترويض السياسي، يبدأ من ضبط المصطلحات وإشاعتها والتحكم بها، بعد أن صار المصطلح يغيّر الأفكار والمواقف شيئاً فشيئاً. ورغم فشل كافة مشاريع الطمس والإلحاق المعادية، يتواصل الترويج الإسرائيلي والأميركي للمصطلحات المسمومة في صيغة اختراق إعلامي متغلغل في مساحات واسعة من الرأي العام العالمي. غير أن الأمر الأخطر يتمثل بتسلل المصطلحات المسمومة للرأي العام العربي والفلسطيني الذي ينجرّ إلى فخ استخدامها دون فحص وتمحيص. إن تسلل المصطلحات الإسرائيلية إلى وسائل الإعلام العربية والفلسطينية واستخدامها في لغة التخاطب العربي، من شأنه تشويش الرأي العام العربي لمصلحة سياسة الإخضاع والهيمنة تحت مسميات ملتبسة ومناورة. وفي الوقت الذي تساهم فيه المصطلحات الإسرائيلية بتشويه النضال الوطني الفلسطيني فإنها تساهم بقلب حقيقة المشروع الصهيوني من مشروع كولونيالي عنصري إلى مشروع تقرير مصير واستقلال للشعب اليهودي .

مصطلحات سياسية في ظلّ القطب الدولي الواحد

عشية انهيار التوازن الدولي الذي أعقب انهيار الاتحاد السوفييتي، ساد في الخطاب السائد دولياً مصطلحات سياسية تعبّر عن مساعي الاحتواء والسيطرة من قبل المنتصرين ومن أهم تلك المصطلحات:

أولاً: «توازن المصالح»

استخدم هذا المصطلح، عشية انهيار منظومة الدول الاشتراكية كبديل لشعار «توازن القوى» الذي فرض علاقات دولية بعد الحرب العالمية الثانية، تنطوي على قدر من التعايش، ووضع خطوطاً حمراء لا يجوز لأي طرف تجاهلها، وقد مكّن «توازن القوى» من بروز منظومة عدم الانحياز، ومن نجاح عشرات حركات التحرر من انتزاع استقلالها، ومن وجود أكثر من سوق دولية. وعندما انهار «توازن القوى» لمصلحة الولايات المتحدة وحلفائها. انهارت معه منظومة العلاقات الدولية وبدأت عملية الاستقطاب الدولية باتجاه قطب واحد، وعلاقات سوق واحدة، ومجلس أمن برأس واحد، وسوق سلاح واحد. وفي هذا السياق طرح شعار ومصطلح «توازن المصالح» بالتطوُّع والإحسان والاستجداء بدلاً من القوة المادية «توازن القوى» التي كانت تفرض «توازن المصالح».

إن «توازن مصالح» دون قوة مادية، يعني أن الطرف الأقوى هو الذي يزن المصالح بمعايير مزدوجة وعلى هواه. وقد انبثق من مصطلح «توازن المصالح» بعد انهيار «توازن القوى» مصطلحات سياسية لتسوية الصراع العربي الإسرائيلي، كمصطلح «السلام خيار استراتيجي»، «آخر الحروب»، «سلام الشجعان»، «التفاوض أسلوب وحيد»، ولم تغيّر تلك المصطلحات من حقيقة أن «ميزان القوى» هو الذي يصيغ الحلول السياسية من الناحية الجوهرية.

ثانياً: سقوط الأيديولوجيا

كانت الأيديولوجيات في زمن ما قبل نهاية الحرب الباردة موزّعة على شكلين أيديولوجيين في أطرافهما المتعددة. وسقوط الأيديولوجيا بمفهوم المنتصرين يقتصر على سقوط الاشتراكية والتحرر والاستقلال، كما لو أن سقوط الاشتراكية ينزع صفة الأيديولوجيا على الرأسمالية ويحولها إلى وجود طبيعي موضوعي «ظاهرة طبيعية» بمنأى عن الأيديولوجيات ومتحررة منها. وفي هذا السياق تنصب الولايات المتحدة كنموذج طبيعي وبديل للأيديولوجيات المهزومة. وكمركز أساس وزمن أساس يلغي الأزمنة الأخرى. ولا شك أن اختزال الأزمنة الكونية إلى زمن الرأسمالية المنتصرة، يشكّل إقالة للأنا الوطنية من التاريخ، والقبول بتاريخ جديد لا مكان فيه لغير الذات الرأسمالية المنتصرة، ويصبح وفقاً لذلك، المسيطر المنتصر ثابت، والمسيطر عليه لا وجود له إلا بقبوله الثابت للمسيطر الثابت.

مصطلحات سياسية في ظلّ الصراع العربي-الإسرائيلي

أولاً: الاستعمار الإسرائيلي «Colonialism»

مصطلح محظور إلى مستوى الإنكار لدى الشعب والدولة في إسرائيل، وباستثناء بعض النخب المثقفة وبعض «المؤرخين الجدد»، فإن الثقافة الإسرائيلية السائدة تتعامل مع النموذج الاستعماري الإسرائيلي بشكل مخالف ومعاكس للنماذج الاستعمارية «الكولونيالية» السابقة، والغريب في الأمر أن الخطاب السياسي والإعلامي العربي والفلسطيني يخلو من استخدام الاستعمار أو «الكولونيالية» في وصف دولة إسرائيل. وسواء كان الخطاب السياسي متشدداً أو معتدلاً، فهو يقدم إسرائيل كبلد طبيعي عندما لا يقرنها بمصطلح استعمار، كما لا يلبي مصطلح احتلال أو استيطان أو «كيان صهيوني» الوصف الدقيق للسمّة الاستعمارية الإسرائيلية.

فالاستعمار يعني احتلال بلدان أخرى واحتفاظه بالسيطرة على الأرض والشعب، والتعامل مع السكان الأصليين كغريب يتم سلب حقوقهم وتحويلها إلى امتيازات للمحتلين عن طريق القوة العسكرية. لقد ارتبطت النشأة الإسرائيلية بسياسة التنصّل من السياق الاستعماري العالمي الذي ولدت داخله،

وطرحت الحركة الصهيونية نفسها باعتبارها الحل الواقعي للمشكلة اليهودية، ونسجت بناءً «أيديولوجياً» يتعامل مع المشروع الصهيوني كعملية تحرير وليس عملية غزو، قافزة عن حقيقة أن الانتداب البريطاني هو القوة التي منحت حق الوطن القومي، وساهم بشكل أساسي في خلق البنية التحتية بما في ذلك القوة العسكرية لذلك المشروع وفي استقدام المهاجرين، أيضاً، وقافزة عن حقيقة أن الأقلية اليهودية الوافدة مارست تطهيراً عرقياً ضد السكان الأصليين ودمّرت بنيتهم المجتمعية بما في ذلك أماكن إقامتهم لتحل مكانهم.

وفيما بعد قام الاستعمار الإسرائيلي بتمويه طبيعته عندما طرح نفسه كبلد صغير محاصر ومهدد بالزوال من قبل الجيوش العربية من كل الجهات، وعندما قامت الدولة الاستعمارية باحتلال أراض تعادل خمسة أضعاف مساحتها، طغت الطبيعة الاستعمارية على المشروع الصهيوني ورغم ذلك استمر الإسرائيليون بحجب تلك الطبيعة.

ثانياً: المستوطنات

مصطلح «الاستيطان» وما يتفرع عنه مصطلح دارج في وسائل الإعلام الدولية والعربية والفلسطينية ومصدر هذا المصطلح دولة إسرائيل الاستعمارية. و«الاستيطان» ينطوي على مدلول سياسي خطير كونه يرمز إلى الاستيطان البشري الطبيعي في أراض بكر لا يقطن بها أحد.

ويتوافق هذا المصطلح مع المقولة الصهيونية الشهيرة التي أطلقت في مطلع القرن العشرين «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». كما ينطبق مصطلح «الاستيطان» على هجرة الجماعات البشرية واستيطانها للأرض منذ تشكل المجتمعات البشرية، غير أن هذا المعنى يعدّ مخالفاً للنموذج الإسرائيلي القائم الذي يتطابق مع الأشكال الاستعمارية التقليدية التي قامت باغتصاب الأرض وطردت السكان الأصليين واستغلت الموارد والثروات والمواقع الاستراتيجية بالقوة المسلحة المتفوقة.

وعند التدقيق في مصطلح «الاستعمار» كبديل ومتفرعاته لا يمكن الحسم فيه بالاستناد للتفسير اللغوي المجرد البعيد عن الواقع. فالبعض يعتبر الاستعمار كلفظ لغوي مجرد ويعني تدمير الأرض واستخدامها بالمعنى الإيجابي. غير أن الاستعمار والمستعمرات الإسرائيلية على الأرض الفلسطينية هو التجسيد الفعلي لـ«الكولونيالية الإسرائيلية». والطابع أو الوظيفة الاستعمارية هو العنصر الحاسم الذي يجعلنا نستخدم استعمار ومستعمرات ومستعمرين بدلاً من استيطان ومستوطنات ومستوطنين.

ثالثاً: الفلسطينيون

مصطلح دارج ومتداول في وسائل الإعلام الإسرائيلية والعالمية والعربية والفلسطينية. ويستخدم هذا المصطلح كبديل لمصطلح «الشعب الفلسطيني» وأحياناً بدل فلسطين، كأن يقال: «المفاوضات بين إسرائيل والفلسطينيين»، عن وضع مصطلح «فلسطينيين»، وإشاعته ونشره بسوء نيّة، وبسذاجة، ليتصدر الخطاب

الفلسطيني والعربي على أعلى المستويات السياسية والثقافية وليسود في الخطاب الدولي، هدفه عند الأوساط المعادية هو التدليل على افتقار الشعب الفلسطيني لمقومات شعب طبيعي وحصر الوجود الفلسطيني بمستوى «أقلية قومية»، فقط، ويترتب على هذا التحجيم المقصود أهداف أخرى من نوع، أن حق تقرير المصير الكامل لا ينطبق عليهم كأقلية قومية ولا ينبغي انفصالهم الكامل عن إسرائيل عبر بناء دولة مستقلة حرة وذات سيادة، بل ينبغي استمرار ربطهم وتبعيتهم الإدارية والاقتصادية والسياسية لدولة إسرائيل، حتى لو سمّي كيانهم بدولة مستقلة.

رابعاً: الإرهاب

مصطلح يستخدم لوصف أية مقاومة مسلحة أو عنيفة للعدوان أو الاحتلال بقطع النظر عن مشروعية المقاومة ضد المحتلين والكولوناليين. إنَّ تعميم مصطلح الإرهاب على أعمال المقاومة الوطنية التي ينخرط فيها شعب ينشد الحرية والاستقلال، ينطوي على اتهام شعوب بالإرهاب ويعني التنكر لنضال الشعب الفلسطيني الذي حظي بمؤازرة واحتضان وتعاطف شعوب ودول العالم. وكانت الترجمة البائسة لسيادة هذا المفهوم في الثقافة الرسمية الإسرائيلية، التمسك الإسرائيلي بعدم الإفراج عن أسرى الحرية الذين ساهموا في عمليات المقاومة الوطنية ضد الاحتلال وهي مقاومة مشروعية ومنصوص عليها في قرارات الجمعية العامة واتفاقية جنيف الرابعة. والغريب في الأمر أن أصحاب هذا المصطلح «الإرهاب» لا يصفون عدوانهم وانتهاكاتهم المروعة للشعب الفلسطيني بأنه إرهاب، بل إنهم يصفون عليه صبغة دفاعية وتبريرية ويمجدون أبطال الجرائم والمجازر وسائر الانتهاكات في صفوفهم . ولم تسلم الانتفاضة الشعبية من لصق تهمة «أعمال العنف والشغب» التي تندرج في إطار الإرهاب. حيث يتم تصوير الشعب الفلسطيني بأنه متمرد على «القانون والنظام» وتصوير المحتلين أنهم يعملون من أجل إعادة «النظام والقانون». ووفقاً لهذه المعادلة فإن «الاحتلال الاستعماري» هو فعل شرعي ونظامي، وإن الشعب الفلسطيني في موقع الخارج عن «النظام والقانون» وبناءً عليه فلا يتورّع المحتلون عن معاقبة شعب بأكمله، وتهديد أبسط حقوقه وممارسة أبشع أنواع الإرهاب ضده.

خامساً: يهودا والسامرة «المناطق»

مصطلح «يهودا والسامرة» يرمز إلى هوية الأرض اليهودية كجزء مما يسمى «أرض إسرائيل التوراتية» ومصطلح مناطق يرمز إلى تجزئة الأرض الفلسطينية ونفي وحدتها الجغرافية. وغرض التعامل الإعلامي مع مصطلح «مناطق» يأتي لخدمة الفكرة القائلة بأن هذه الأراضي «متنازع عليها» وليست أراضي محتلة استناداً للقانون الدولي وقرارات الشرعية الدولية. وبناءً على ذلك المفهوم فإنه يحق للطرف الإسرائيلي تملك وضمّ الأراضي التي يعتقد أنها تخدم مصالحه وأطماعه الاستعمارية التي تموه، دائماً، بالمصالح والاحتياجات الأمنية الإسرائيلية.

سادساً: عرب إسرائيل

مصطلح يطلق على جزء من الشعب الفلسطيني بقي صامداً في أرضه ووطنه منذ العام 1948، ومدلول هذا المصطلح السياسي هو عزل هذا الجزء الحيوي من الشعب الفلسطيني عن الأجزاء الأخرى، بما يتفق مع سياسة تمزيق وحدة الشعب ووحدة مصالحه وأهدافه.

إن ترويح مصطلح «عرب إسرائيل» وثيق الصلة بسياسة التعامل مع الشعب العربي الفلسطيني في مناطق الـ 48 كأقلية قومية، يقدم لها فتات من الحقوق على قاعدة التمييز العنصري لأنها أقلية مقطوعة الجذور عن شعبها الفلسطيني ومحيطها العربي. ولا يجوز مشاركتها في ترجمة حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني.

إنّ المصطلح البديل «لعرب إسرائيل» هو «الشعب العربي الفلسطيني في مناطق الـ 48» .

مصطلحات أخرى

المصطلح الإسرائيلي	المصطلح الفلسطيني-العربي
إعادة الانتشار	الانسحاب من الأراضي المحتلة
السلطة الفلسطينية	السلطة الوطنية الفلسطينية
حائط المبكى	حائط البراق
جبل الهيكل	الحرم القدسي الشريف
مناطق السلطة «والحكم الذاتي»	الأراضي الفلسطينية الحرّة
شرقي القدس/القطاع الشرقي من القدس	القدس العربي
المعابر	الحدود

قائمة بالأسماء العربية المستبدلة بأسماء إسرائيلية في سياق سياسة التهويد الإسرائيلية:

الاسم العربي	الاسم الإسرائيلي
جبل المشارف (سكوبس)	هار هتسوفيم
باب العامود	شعار شخيم
باب المغاربة	شعار هأشبوت
حارة الشرف	الحي اليهودي
رباط الكرد	المبكى الصغير
حي سلوان	كفار هشيلواح

الحشمو نائيم شارع مردخاي غور تسنحاتيم (شارع المظليين) حي الصديق شمعون ديرخ شخيم شعار يافو شعار هأريوت بيت ديسكن بيت يوري نؤوب دافيد	نفق الأقصى شارع باب الأسباط شارع السلطان سليمان حي الشيخ جراح شارع نابلس باب الخليل باب الأسباط دار رصاص عقبة الشيخ درويش دير مار يوحنا
--	--

قائمة بالألفاظ الإسرائيلية المتسربة والمستخدمة جزئياً من قبل المواطنين:

المعنى العربي	اللفظ الإسرائيلي
حاجز أمني عسكري	المخصوم (المحسوم)
إشارة مرور	رمزور
إغلاق	سيجر
سلام	شلوم
البيوت البلاستيكية للزراعة (الدفينات)	حماموت
سيارة أجرة	مئيت
محطة	تحناه
تمام، ماشي الحال	بسيدير
قليلاً، دقيقة	ريكه
فريق	مكابي
نعم	كين
نقال. جوال. خليوي	بيلفون
جهاز	مخشير
كومبيوتر (حاسوب)	محاشيف
كشف الراتب	تلوش
ضريبة السكن	الأرنونا

أحسن أجدادنا نحت مصطلحاتهم وحرصوا على التمسك بها وولفت النظر كمثل على ذلك المصطلح الذي جرى استخدامه بعد أن أبرم صلاح الدين الأيوبي هدنة الرملة العام 588هـ مع ريتشارد قلب الأسد وهو لفظ «الموادعة». وقد أفرد «صبح الأعشى في كتابه الانشا» للقلقشندي باباً حول «المهادنات» حدد فيه مدلول كل مصطلح ومتى يستخدم. فهناك الهدنة والمهادنة، وهناك الموادعة، والمسالمة، والمقاضاة التي هي التحكيم اليوم- والمواصفة ولكل معناه الدقيق .

إنَّ أول ما ينبغي عمله في التعامل مع المصطلحات السياسية الإسرائيلية، هو الوقوف أمامها قبل الإنجرار إلى فخ استخدامها وأن نقرن ذلك بطرح مصطلحاتنا والعمل على تعميمها، ولا شك أن تعميم مصطلحاتنا يصطدم بعقبات كثيرة أهمها النفوذ الإعلامي الإسرائيلي أو الإعلام المتعاطف مع إسرائيل .

إنَّ التعاطي البناء مع قضية المصطلحات، يستدعي التنادي للقاءات عربية فكرية من أجل الاتفاق على المصطلحات الصالحة للاستخدام والمحظورة. ومن أجل اعتماد معجم عربي للمصطلحات السياسية .

* إعلامي وباحث فلسطيني يقيم في رام الله.

المراجع

- 1) إشكالية المصطلح أ. د. محمد رشاد الحمزاوي، أستاذ اللسانيات في جامعة تونس، مجلة العلوم الإنسانية العدد 2 صيف 1999 .
- 2) نافذة على هوية المصطلح أ. د. غانم هنا، أستاذ علم الاجتماع - جامعة دمشق، مجلة العلوم الإنسانية - مصدر سابق.
- 3) إنزياحات المصطلح النقدي في الخطاب الأدبي المعاصر. أ. د. سعيد علوس أستاذ النقد والأدب المقارن- جامعة الرباط. مصدر سابق.
- 4) التحيز في المصطلح. د. أحمد صدقي الدجاني. مجلة منبر الشرق عدد 8 يوليو 1993 .
- 5) معجم المصطلحات الصهيونية. إعداد أفرام ومناحيم تسلي، ترجمة أحمد بركات العجرمي- دار الجليل عمان 1988 .
- 6) معجم المصطلحات السياسية والدبلوماسية/ إعداد د. خليل أحمد خليل أستاذ في الجامعة اللبنانية- دار الفكر اللبناني 1998 .
- 7) مقالة محمد حسنين هيكل، الأيام 1999/7/28 .
- 8) مشكلات تعريب المصطلح اللغوي المعاصر- مصطفى الحيايرة. مجلة التعريب تصدر عن المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف - دمشق.
- 9) المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية. د. حسان حلاق/ د. عباس صباغ دار العلم للملايين 1999 .
- 10) معجم ألفاظ العلم والمعرفة في اللغة العربية - عادل عبد الجبار زاير مكتبة لبنان 1997 .
- 11) معجم الحضارة- محمود تيمور مكتبة الآداب 1961 .
- 12) مقالة «مصطلحات معجم المفاوضات» د. عبد الهادي أبو طالب القدس 2000/9/25.
- 13) يؤس الثقافة في المؤسسة الفلسطينية- د. فيصل دراج دار الآداب 1996 .
- 14) إلى متى ستبقى إسرائيل دولة «كولونيالية» في عالم «ما بعد كولونيالي»، مهند عبد الحميد، الأيام 2000/2/8.